1 فهم علم النفس عبر الثقافي
Understanding Cross-Cultural Psychology

تذكر أن كل الاشياء هي فقط آراء وأنَّك قادر على أن تفكر بالشكل الذي يسرك

ماركوس اوريليوس 112-180 قبل الميلاد
امبراطور روماني وفيلسوف رواقي

الغرب يستطيع أن يعلم الشرق كيف يكسب عيشه، ولكن الشرق لابد في النهاية أن يُطلب منه أن يرى الغرب كيف يعيش.

تيهيي هسياة 1884-1972
معلم ودبلوماسي صيني

الآن هم شهدوا فعليًا العواقب المدمرة للتسونامي أمام أعينهم. اثنان من علماء النفس، فريد وريتا، أسرعا على الفور إلى تايلاند بمجرد أن وصلت التقارير حول التسونامي إلى أمريكا. كلا هذين المتخصصين شهدا الكثير في حياتهما المهنية، ولكن ما شاهداه الأن كان شيئًا يحطم القلب بل وأكثر. الأثر المميت للأمواج كان فوريًا. والخراب الذي نتج عن ذلك لا يمكن وصفه. وبدا أن المعاناة البشرية هناك لاتنتهي.

إنّ الكوارث الطبيعية تؤثر علينا جميعًا بغض النظر عن قوميتنا أو انتماءاتنا العرقية. الأعاصير، العواصف، الفيضانات، والزلازل تنشر الدمار والخراب في حياتنا، وتحدث أثرًا نفسيًا فوريًا وحادًا وكذلك طويل المدى. بوضع هذا في اعتبارنا، كيف يستطيع المتخصصون مساعدة الناس في التغلب على آلامهم الانفعالية بأفضل صورة ممكنة؟

كان فريد بيماك يحاول معالجة هذا السؤال لسنوات. وكبروفسور، قام بتطوير عدة مناهج علاجية من أجل التدخل السيكولوجي لمساعدة ضحايا الكوارث واسعة النطاق. هذه المناهج عملت بشكل جيد في المعمل، ولكن فعاليتها في العالم الواقعي أكثر تعقيدًا. هل مثل هذا العلاج يفيد الفقراء الذين عادة هم من يتعرضون إلى أقوى الضربات من الكوارث؟ ماذا عن المجتمعات اللاتينية المهاجرة، والسكان الأصليين في أستراليا، ومحميات الأمريكان الهنود الحمر؟ هل هذه المناهج تعمل في أفريقيا وجنوب شرق آسيا؟

وقام بيماك بتأسيس منظمة «مرشدون بلا حدود»، والتي هي مؤسسة غير حكومية تركز على دراسة وتخفيف المعاناة حول العالم، وكان يعمل مع زوجته ريتا تشونج لأكثر من 17 سنة لتنفيذ أشكال مختلفة من المساعدة النفسية لضحايا الكوارث الطبيعية. وأحد تحدياتهم الرئيسة ما يزال هو: هل تستطيع مناهج البحث والتدخلات السيكولوجية التي تم تطويرها في أحد أجزاء العالم أن يتم تطبيقها بشكل فعال في ثقافات أخرى؟ ونحن نعرف أن العوامل الاجتماعية الثقافية تؤثر على الطريقة التي يتصرف ويفكر ويشعر بها الناس، وأن نفس الدراسة العلمية ربما تاتي بنتائج مختلفة في المجموعات المختلفة. والشيء الذي يبقى دون إجابة هو ما مقدار هذه الفروق. لو أن هذه الفروق ضئيلة، إذن بغض النظر عن المكان الذي نولد فيه ويتم تربيتنا فيه، فإن السلوك البشري والخبرة السيكولوجية يجب أن تقوم على ميكانيزمات عالمية متشابهة. على الجانب الآخر، لو كانت هذه الفروق كبيرة إذن فإننا كعلماء وباحثين يجب أن ننتبة بشدة إلى الفروق التي تميز الناس الذين يأتون من خلفيات متباينة. وعلم النفس، كمجال، لا يمكنه بعد وضع استنتاجات حاسمة فيما يتعلق بهذة المنظورات المختلفة؛ بسبب عشرات القضايا التي ما تزال دون حل من ناحية علم النفس كمجال عالمي. في هذا الفصل يتم تفصيل عدد قليل من هذه القضايا.

و الشيء الأكثر أهمية هو أن الحالة الراهنة للدراسات النفسية تفتقر للتنوع. الأبحاث المنشورة في الولايات المتحدة كانت تركز بشكل ضيق أكثر من اللازم على الأمريكيين الذين يشكلون أقل من 5 % من سكان العالم. والتحليل المفصل للمنشورات في الدوريات الأكاديمية الرائدة في علم النفس، يبين أن أكثر من 90 % من عينات الدراسات جاءت من مجموعة صغيرة من الدول التي تمثل 12 % فقط من سكان العالم (Henrich et al.,2010). بالإضافة إلى ذلك، فإن طلاب الدراسات العليا يشكلون حوالي ثلثي عينات الدراسات من الولايات المتحدة وأكثر من ثلاثة أرباع العينات في الدراسات التي يتم اجراؤها في الدول الأخرى. وباختصار شديد، الحالة الراهنة للأبحاث النفسية لا تمثل بشكل ملائم تعداد السكان العالمي (Arnett,2008).

بالإضافة إلى ذلك، الإنجليزية هي اللغة الدولية الأكثر اعترافًا في علم النفس. الغالبية العظمى من الدوريات تظهر باللغة الإنجليزية، والمؤتمرات الدولية تستخدم الإنجليزية لغتها الرسمية، والباحثون الذين يملكون إتقانًا محدودًا للإنجليزية لا يملكون على ذلك فرصة لترقية أبحاثهم بما يفيد التنوع السيكولوجي العالمي. وبالإضافة إلى الاقتصار على استخدام اللغة الإنجليزية يتعرض التنوع في الأبحاث النفسية للتقييد؛ بسبب الميل التاريخي لكون الأبحاث النفسية يتم تطبيقها في مجموعة صغيرة نسبيًا من الدول المختارة: الولايات المتحدة، كندا، فرنسا، ألمانيا، وقائمة قصيرة جدا من الدول الأوروبية الأخرى. والعلماء من هذه الدول قاموا بأكبر قدر من الإسهامات في علم النفس. ومع ذلك، هناك إسهامات لا

تقل أهمية عن ذلك من أجزاء أخرى كثيرة من العالم - تتضمن الصين، اندونيسيا،اليابان، روسيا، جنوب أفريقيا، تركيا، ايران، المكسيك، وهذه مجرد أمثلة - والتي تمر دون إدراك من جانب الغالبية العظمى من علماء النفس المتخصصين (Shiraev,2011).

وعلم النفس عبر الثقافي يحاول حل هذه القضايا عن طريق تحديد واستعراض أوجه الشبه والاختلاف بين البشر مع الهدف النهائي، الذي هو توحيد الناس في كل أنحاء العالم عبر الفهم والفضول والتقدير المتبادل.

ما هو علم النفس عبر الثقافي؟

What Is Cross-Cultural Psychology?

قبل الوصول إلى مرحلة الرشد، لا يختار معظمنا المكان الذي يعيش فيه أو اللغة التي يتكلمها. والبشر ينشأون في المدن والبلدات والقرى أو في أي مكان - قريبًا من بوسطن الباردة أو في كينشاسا الحارة - يتعلم الناس فهم الأحداث من حولهم طبقًا لرغبات آبائهم والمتطلبات المجتمعية وتقاليد أسلافهم. والطريقة التي يتعلم البشر بها الارتباط بالعالم من خلال مشاعرهم وأفكارهم تؤثر على ما يفعله هؤلاء الأفراد. وأفعالهم بدورها تؤثر على أفكارهم واحتياجاتهم وانفعالاتهم.

والظروف التي يعيش فيها الناس تتراوح من مكان إلى مكان. والأفعال والحالات الذهنية البشرية - والتي تتشكل وتتطور في بيئات مختلفة - ربما أيضًا تتذبذب من مجموعة إلى أخرى. هذه الأنواع من الفروق (وبالطبع التشابهات) يتم دراستها في علم النفس عبر الثقافي (Gudyknst&Bond,1997). **علم النفس عبر الثقافي** هو الدراسة الناقدة والمقارنة للتأثيرات الثقافية على السيكولوجية البشرية. رجاء لاحظ عنصربن مهمين في هذا التعريف. أولًا، هذا المجال مقارن، أي دراسة في علم النفس عبر الثقافي تستمد استنتاجاتها من عينتين على الأقل واللتين تمثلان مجموعتين ثقافيتين على الأقل. ثانيًا، لأن علم النفس عبر الثقافي يتضمن المقارنات بشكل أساسي، وأن فعل المقارنة يتطلب مجموعة خاصة من المهارات الناقده، فإن دراسة علم النفس عبر الثقافي لا يمكن فصلها عن التفكير الناقد.

وعلم النفس عبر الثقافي يفحص التنوع السيكولوجي والأسباب الأساسية لمثل هذا التنوع. وبصورة خاصه، يقوم متخصصو علم النفس عبر الثقافي بدراسة - ومرة أخرى من منظور مقارن - الروابط بين المعايير الثقافية والسلوك والطرائق التي تتأثر بها أنشطة بشرية معينة بالقوى الاجتماعية والثقافية المختلفة والمتعارضة أحيانًا (Segall et al.,1990). على سبيل المثال، فكر في السؤال الذي اقترحته القصة الافتتاحية لهذا الفصل. هل الناجون من الكوارث يمرون بمباحث أعراض متشابهة عبر الثقافية (Bemak&Chung,2008)؟ وإذا كانوا يفعلون، هل يستطيع أي عالم نفسي استخدام أحد التدخلات

التي تهدف إلى معالجة أعراض ما بعد الصدمة في الولايات المتحدة في بيئات ثقافية أخرى مثل السودان أو إيران؟

وعلم النفس عبر الثقافي لا يحاول فقط أن يميز الفروق بين الجماعات، ولكن أيضًا تأسيس مبادئ عالمية سيكولوجية وظواهر يشترك فيها كل البشر والجماعات (Berry et al.,1992; Lonner,1980).(انظر الشكل 1.1). على سبيل المثال، يحاول علم النفس عبر الثقافي تحديد العوامل المشتركة فيما يتعلق ببنية الشخصية الإنسانية: الأنماط الثابتة نسبيًا في التفكير والشعور والسلوك. مثل هذه السمات العالمية تتضمن العصابية، الانبساطية، الانفتاح على الخبرة، القبول، الضمير (Costa&McCrae,1997). هذه النتائج تدعمها العديد من الدراسات العالمية (Schmitt et al.,2007).

كيف يختلف علم النفس عبر الثقافي عن علم النفس الثقافي؟ أولًا والأكثر أهمية، أن **علم النفس الثقافي** يسعى إلى اكتشاف الروابط ذات المعنى بين ثقافة ما وسيكولوجية الأفراد الذين يعيشون في هذه الثقافة المعينة (وهو ما سنقوم بتعريفه لاحقًا في هذا الكتاب). والمعتقد الرئيس لعلم النفس الثقافي هو أن السلوك البشري يكون له معنى فقط عند رؤيته في السياق الاجتماعي الثقافي الذي يحدث فيه (Segall et al.,1990). على سبيل المثال، متخصص علم النفس الثقافي ربما يكون مهتمًا بوصف كيف تؤثر الفلسفة البوذية على كل من سلوك واتجاهات الأزواج الشباب في تايلاند. أو ربما يهتم الباحث العلمي بفحص كيف تندمج المبادئ الأساسية للإسلام داخل وعي الفرد وسماته الشخصية (Monroe&Kriedie,1997). علم النفس الثقافي يدافع عن الفكرة التي تقول إن السلوك والعمليات النفسية هي بشكل أساسي نتاج تفاعل بين الثقافة والفرد.